

ألمانيا والسلطنة خلال الحرب العالمية الأولى تحالف تحت مظلة "الجهاد"

عبد الرؤوف سنو

عندما تتناول وسائل الإعلام اليوم "الجهاد الديني" لمجموعات أصولية إسلامية متشددة تشكل تهديداً للحضارة المسيحية وللشعوب العربية وكياناتها السياسية في آن، فإن قلة من الباحثين تعلم أن ألمانيا استعملت قبل الحرب العالمية الأولى نفوذ السلطان العثماني كخليفة، وكذلك مجموعات جهادية إسلامية متعصبة، لخدمة مصالحها الاستعمارية. وخلال الحرب، وضعت الدولة الألمانية إستراتيجية لتحريض العالم الإسلامي على الثورات ضد أعدائها من الدول المسيحية تحت اسم "الجهاد الإسلامي". صحيح أن ما يُسمى بالتعصب الإسلامي ضد الغرب والحضارة المسيحية كان موجوداً في الماضي ولا يزال في الحاضر، نتيجة التجربة التاريخية مع "الصلبية" والاستعمار، إلا أن دولاً مسيحية لم تتوان في التاريخ المعاصر عن استغلال القوى الجهادية الإسلامية لتنفيذ مصالحها، حتى وإن شكل ذلك تهديداً للحضارة الغربية، وما حصل على يد الولايات المتحدة في أفغانستان بخلق "القاعدة"، أسطع دليل على ذلك.

*

منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، تدرج استخدام ألمانيا للسلطنة العثمانية، كأقوى دولة إسلامية في العالم، لخدمة مصالحها الاستعمارية، من الإعلان عن "صداقتها" للمسلمين في العالم في أكثر من مناسبة (زيارة الإمبراطور الألماني إلى بلاد الشام وكلمته في دمشق في العام 1898 وإلى طنجة في العام 1905)، إلى استخدام نفوذ السلطان العثماني كخليفة على المسلمين، وفق ما سمي بـ "الجامعة الإسلامية". وعندما عُقد التحالف بينها وبين الدولة العثمانية لخوض الحرب الكونية معاً، اشترطت ألمانيا على السلطان العثماني إعلان "الجهاد المقدس" ضد "دول الوفاق الثلاثي". ويذكر بعض المؤرخين إن إعلان

"الجهاد" العثماني جاء بعد إلحاح شديد من قبل برلين.¹ فمن دون دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، فلا قيمة ولا معنى لجهاد إسلامي قد يصدر عن جهة إسلامية أخرى.² ومن المفارقات العجيبة في الحرب، ظهور ثلاثة جهادات إسلامية: جهاد عثماني لصالح ألمانيا يُستخدم ضد دول مسيحية (الوفاق الثلاثي)، و جهاد شيعي للمرجعيات في كربلاء والنجف في العام 1915 ضد بريطانيا حث عليه الألمان، و"جهاد عربي" أعلنه الشريف حسين بن علي في العام 1916 لحساب بريطانيا ضد ألمانيا المسيحية وحلفائها.

إن السؤال الذي يطرحُ نفسه: لماذا امتلكت ألمانيا كل هذا التأثير في السلطان العثماني، وسعت بالتالي للاستفادة من الإسلام العثماني وقوته الروحية والسياسية؟ ولماذا يخضع السلطان العثماني لمشينة ألمانيا ويعلن "الجهاد المقدس" ضد دول مسيحية ويستثني دولاً مسيحية أخرى؟ إن الإجابة على الشق الأول من التساؤل يرتبط بحجم المصالح الألمانية في الدولة العثمانية التجارية والاقتصادية والاستثمارية والعسكرية والثقافية، بحيث أضحت وجود السلطنة والحفاظ عليها في وجه مخططات الدول الأوروبية الأخرى لتقسيمها وتقاسمها ضرورة سياسية وإستراتيجية لألمانيا.³ فرفضت على التوالي خلال العامين 1895 و1912 مشروعين بريطاني وآخر دولي لتقسيمها.⁴ أما بالنسبة إلى الدولة العثمانية، فإن ضعفها الذي ظهر بوضوح خلال القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، وتُرجم نهشاً وقضماً لممتلكاتها في جنوب شرقي أوروبا وشمال إفريقيا والمشرق العربي، فضلاً عن الحروب البلقانية في العامين 1912/1913، والحرب في طرابلس (ليبيا) في العام 1912، جعلها تتطلع إلى ألمانيا لتكون حليفها ضد هجوم دول الاستعمار عليها. واعتقد الاتحاديون، حكام استانبول، أن انتصار ألمانيا في الحرب والتي لم تكن لديها أطماع في الاستيلاء على أراضي عثمانية، يمكنها أن تحمي السلطنة من خطر التقسيم، فتتمكن الدولة العثمانية من أن تستعيد مكانتها الدولية وأجزاء من ولاياتها التي خسرتها، وخصوصاً تلك التي استولت عليها روسيا،⁵ هذا بالإضافة إلى مصر. وكانت هناك قيادات عسكرية عثمانية كأثور باشا، على سبيل المثال، ترى أن مستقبل السلطنة

¹ George Lenceowski, The Middle East in World Affairs, Ithaca 1952, p. 39; Ulrich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, Princeton/New Jersey 1968, p. 117.

أعلن الجهاد من قبل الدولة العثمانية في 7 تشرين الثاني 1914 من خلال خمس فتاوى أصدرها شيخ الإسلام خيري بك على شكل أسئلة وجهت إليه. ورأت الفتاوى أن محاربة السلطنة من قبل المسلمين الخاضعين لدول الأعداء أو إلحاق الأذى بالدولتين الألمانية والنمساوية هو "إثم عظيم" Martin Hartmann, Islampolitik, Hagen, pp. 3-4; in: Koloniale Rundschau 11-12(1914), pp. 588-590) وقارن بـ:

Geoffrey Lewis, The Ottoman Proclamation of Jihad in 1914, in: *The Islamic Quarterly* (London), 19, 3-4 (1975), pp. 157-163.

² ألكسندر فيل، "عكاز لمن لا حيلة له. إستراتيجية ألمانيا الإسلامية بين 1914-1918". مئة عام على الحرب العالمية الأولى، ترجمة رشيد بوطيب، مجلة فكر وفن، تشرين الثاني 2013 <http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/a100/ar12234130.htm>

³ PAAA/Türkei, 189, Sicherstellung der deutschen Interessen für den Fall der Lösung der Dardanellenfrage, Referent L.R. Rauffauf, II 17207, Berlin July 19th, 1894, Bl. 8 – 12.

⁴ سنو، ألمانيا وسياسة "الاندفاع نحو الشرق"، ص 274 – 275؛ وبالنسبة لشانعات تقسم السلطنة التي راجت عام 1912، أنظر: عزيز بك، سوريا ولبنان في الحرب العالمية الأولى، ج3، لات، لام، ص 75 – 77، وتحديدأ نصيب ألمانيا من عملية التقسيم هذه. أما Hagen, p. 14. فينفيها جملة وتفصيلاً.

⁵ David Fromkin, A Peace to End all Peace. Creating the Modern Middle East 1914 –1922, London 1989, p. 66.

يكون في التحالف مع الألمان، وأن انتصارهم في الحرب سوف يساعدها على استرجاع ما خسرت من ممتلكات وأن تستعيد مكانتها الدولية، وإعادة فرض سلطانها على المسلمين.⁶

1- الأهداف الإستراتيجية العسكرية لألمانيا من التحالف مع السلطنة

قبل الحرب وخلالها، كان ألمانيا تدرك أن مستقبلها اقتصادها يكمن في آسيا الصغرى والمشرق العربي. ورأت لجنة شُكلت عشية اندلاع الحرب "أن قدرات آسيا الصغرى الاستيعابية للرأسمال والصناعة والتجارة الألمانية لا تزال متاحة من خلال مشاريع سكك الحديد واستغلال ثروات الأرض الباطنية وتنمية الزراعة، وأن الحلّ الأفضل لاستمرار سياسة التغلغل السلمي (الألمانية) لا يكون بحلّ المسألة الشرقية، إنما في الحفاظ على الوضع الراهن،⁷ أي على الدولة العثمانية.

عسكرياً، كانت وزارتا الخارجية والحرب الألمانيان قبل الحرب تتجنبان توقيع معاهدة تحالف مع الدولة العثمانية بسبب ضعفها وخشية أن يورطها ذلك في صراع مع بريطانيا.⁸ في المقابل، عملت ألمانيا على تقوية علاقاتها بالدولة العثمانية في مجالات أخرى. فكانت أكبر مزود لها بالأسلحة، فضلاً عن تدريب جيشها.⁹ فارسلت الجنرال أوتو ليمان فون ساندرز (Otto Liman von Sanders) إلى استانبول ليكون رئيساً لبعثة عسكرية تقوم بتدريب الجيش العثماني، الذي أنهكته حروب البلقان وطرابلس، وذلك لزيادة فعاليته. وفي تموز 1914، بعث فون ساندرز بتقرير تحدث فيه عن الخطوات التي تحققت في تدريب الجيش العثماني، وأن السلطنة تستطيع أن تضع في أية حرب مقبلة ما بين أربعة إلى خمسة فيالق قتالية.

وبعيد اندلاع الحرب، غيرت ألمانيا إستراتيجيتها، وأصبحت تعمل على ضم الدولة العثمانية إليها في الحرب، آخذة في الاعتبار موقع السلطنة الاستراتيجي في الصراع الكوني: إشرافها على الممرات العثمانية، وعلى الطريق البري الذي يربط بين وسط أوروبا والخليج العربي، فضلاً عن اتصال السلطنة جغرافياً مع فارس وأفغانستان وبالتالي الوصول إلى الهند. من هنا، فإن مشروع سكة حديد بغداد جسد إستراتيجية ألمانية برية للوصول إلى آسيا الصغرى عبر وسط أوروبا بعيداً عن مراقبة الأسطول البريطاني. وكانت ألمانيا تدرك أنها لا تستطيع أن تقارع بريطانيا "سيدة البحار". هذا التحالف مع العثمانيين وقر على ألمانيا إرسال أعداد كبيرة من جيوشها إلى الشرق كي لا تضعف جبهاتها في أوروبا.

قامت الإستراتيجية الألمانية الحربية، بالنسبة إلى استخدام الإسلام، على ثلاثة مرتكزات:

الأول: أن ينشط العثمانيون عسكرياً ضد بريطانيا في مصر، وضد روسيا في القوقاز والممرات العثمانية والبحر الأسود،¹⁰ وذلك لضرب مواصلات بريطانيا مع الهند، والإمساك بروسيا براً

⁶ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918، القاهرة 1984، ص 15.
PAAA/Türkei, 189, Sicherstellung der deutschen Interessen.

⁸ فيل، "عكاز لمن لا حيلة له"، مرجع سبق ذكره.

⁹ ألكسندر فيل، "عكاز لمن لا حيلة له". إستراتيجية ألمانيا الإسلامية بين 1914-1918 "مئة عام على الحرب العالمية الأولى، مرجع سبق ذكره <http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/a100/ar12234130.htm>

¹⁰ William Yale, The Near East. A Modern History, Ann Arbor 1958, pp. 206-212; Jehuda Wallach, Anatomie einer Militärhilfe. Die preussisch-deutschen Militärmissionen in der Türkei 1835-1919, Düsseldorf 1976, p. 151, 167.

وبحراً عبر القضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود ومهاجمتها في مناطقها القوقازية ذات الأهمية الاقتصادية.¹¹

الثاني: إقامة حلف إسلامي عريض يضم الدولة العثمانية وفارس وأفغانستان، ليكون رأس حربته لمهاجمة الهند وطرده بريطانيا منها، وأن تكون فارس الجسر الذي تعبر عليه القوات العثمانية إلى أفغانستان ومهاجمة الهند، وذلك "... لأن الطريق البري عبر الدول تلك هو الاتصال الوحيد الآمن مع الهند، من أجل تسهيل محاربة بريطانيا في الهند".¹²

الثالث: استخدام الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين في المناطق الخاضعة لسيطرة الأعداء وتحريضهم على الثورة عليهم، أو على الحكومات التابعة لهم، في المشرق والمغرب العربيين وفارس وأفغانستان والهند والقوقاز.¹³ لقد كان الألمان ينظرون إلى "الجامعة الإسلامية"، كغيرهم من الأوروبيين، على أنها حركة تعصب ديني ضد أوروبا المسيحية. إلا أنهم كانوا من جهة أخرى يحتاجون لتعصبها في صراعهم مع "دول الوفاق الثلاثي".

وقد أدرك رئيس أركان الجيش الألماني هلموت فون مولتكه (Helmuth von Moltke) أهمية توثير الإسلام لمساعدة بلاده على تحقيق أهدافها من الحرب. فكتب إلى وزارة الخارجية في 2 آب 1914، يوم توقيع معاهدة التحالف بين الدولة العثمانية وألمانيا، يقول: "إن إحداث تمرد في الهند ومصر والقوقاز له أهمية قصوى". ووصف أحد المراقبين الألمان المعاصرين "الجهاد المقدس" الذي أعلنه السلطان العثماني "بأنه" وسيلة قوية تسير جنباً إلى جنب مع الجيوش العثمانية في أراضي العدو"¹⁴، وهو لا يجعل من "دول الوفاق الثلاثي" أعداء الدولة العثمانية فحسب، وإنما أعداء الإسلام قاطبة.

واعتقدت القيادة العسكرية الألمانية أن حملة عثمانية ناجحة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس، سوف تزعزع مركز بريطانيا فيها وخطوط مواصلاتها الإستراتيجية مع الهند. فوضع الألمان خطاً لنسف قناة السويس ومراكز إرشاد السفن، ومنشآت المياه، ومحطات البرق والجسور الحديدية والمرافئ في بور سعيد والإسكندرية.¹⁵ وتوقعوا أن الاستيلاء على مصر سيجعل بريطانيا بين خيارين اثنين، إما إرسال نصف أسطولها إلى مياه الهند، مع كل ما يحمله هذا من تأثير سلبي في قوتها البحرية في مناطق الصراع الأوروبي، أو عقد السلام مع ألمانيا. وعقب إمبراطور ألمانيا على ذلك بالقول: "إن على البريطانيين أن يفهموا أن الحرب ضد ألمانيا ستعني خسارتهم للهند".¹⁶ وبالمقدار نفسه، توقع العثمانيون إمكانية تحرير مصر بدعم عسكري ألماني انطلاقاً من سورية (فلسطين).¹⁷

Rathmann, p. 82. 11

PAAA/WK, Nr. 11, R 20937, vol. 2, Denkschrift Oppenheim, pp. 93–94 12

Fischer, pp. 146–148. 13

Galli, p. 29. 14

Fischer, pp. 149–150. ويذكر المؤرخ المصري وجيه عبد الصادق عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث في ضوء 15

الوثائق الألمانية، القاهرة 1999، ص 59–60 أن الألمان حاولوا بالفعل إغراق إحدى السفن التجارية في القناة بعد تفجيرها لتعطيل الملاحة. لكن هذه الخطة كشفت في اللحظة الأخيرة.

Fritz Fischer, Griff nach der Weltmacht. Die Kriegszielpolitik des kaiserlichen Deutschland 1914/1918, 4. Aufl. Düsseldorf 1971, p. 139; Wilhelm von Kampen, Studien zur deutschen Türkenpolitik in der Zeit Wilhelms II, Ph.D, thesis, University of Kiel, p. 66. 16

F.O. 371/59, Cromer to Grey, secret, No. 146, CairoDec.12th. 1905. 17

وقد شكلت سورية وفلسطين أهمية إستراتيجية بالنسبة للهجوم على قناة السويس. ففي الفترة ما بين اندلاع الحرب في آب 1914، وانضمام السلطنة إليها في تشرين الثاني من العام نفسه، أرسلت ألمانيا الأسلحة إلى غزة ويافا على متن سفن ألمانية أفرغت حمولتها في بيروت.¹⁸ وعلى المستوى نفسه، شكل العراق أهمية إستراتيجية كبيرة لألمانيا، بسبب موقعه على الخليج وكونه طريقاً مهماً لمواصلات بريطانيا مع الهند.¹⁹ وقد اقترح آرثور تسيمرنر (Arthur Zimmermann)، وكيل وزارة الخارجية الألمانية، بتاريخ 25 آب 1914 إرسال مبعوثين إلى السودان والحبشة للتحريض من هناك الشعب والجيش المصريين على الثورة.²⁰ كما وضعت القيادة الألمانية خطاً لتحريض مسلمي المغرب ضد فرنسا، وإرسال الأسلحة والأموال إلى تلك المنطقة، لدفع الناس للثورة ضد الفرنسيين.

2- توظيف ألمانيا للجهاد: دور المستشرقين

لكل دولة وسائلها وأدواتها لمحاربة أعدائها وبالتالي الوصول إلى تحقيق أهدافها السياسية من الحرب. وفي الحروب، تشرعن كل الوسائل والأساليب. فقبل أسبوعين من اندلاع القتال، قال رئيس وزراء ألمانيا بتمان - هولفج (Bethmann-Hollweg): "إن على ألمانيا ألا تحارب سلاح العدو فحسب، وإنما عليها أن تصد أيضاً دعايته الكاذبة حول ألمانيا والنظرة الخاطئة التي تُعطى عنها".²¹ فأمر بالقيام بدعاية في الخارج، وطبع المنشورات وتوزيعها وإنشاء مكاتب الدعاية. وعندما اندلعت الحرب، اضطلع بالأمر مستشرقون واقتصاديون ألمان، ووضعوا أنفسهم بتصريف المجهود الحربي الألماني. ومن هؤلاء على سبيل المثال: ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim)، وبول رورباخ (Paul Rohrbach) وأرنست ياكه (Ernst Jäckh)، وفريدريش ناومان (Friedrich Naumann). يُضاف إليهم كارل هـ. بيكر (Carl H. Becker)، وهوغو غروته (Hugo Grothe) وأويغن متفوخ (Eugen Mittwoch)²² وغيرهم.

يعتبر ماكس فون أوبنهايم²³ أحد كبار الشخصيات الألمانية التي لفتت الانتباه قبل الحرب إلى أهمية استخدام "الجامعة الإسلامية"، و"الجهاد الإسلامي" ووجوب اعتماد ألمانيا خطاب مؤيد للمسلمين، وصفة السلطان العثماني كخليفة، من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة

¹⁸ Edwin Pears, "Turkey, Germany and the War", The Contemporary Review 107 (1915), pp. 286-7.

¹⁹ ل.ن، كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، تعريب عبد الواحد كرم، بيروت/بغداد 1975، ص 4-61.

²⁰ Rathmann, p. 121.

²¹ Irmgrad Farah, Die deutsche Pressepolitik and Progandatätigkeit im Osmanischen Reich von 1908-1918 unter besonderer Berücksichtigung des Osmanischen Lloyd", Beirut 1993, pp. 235-6.

²² عمل رورباخ بعد اندلاع الحرب في قسم الأخبار في دائرة البحرية وأصبح في تشرين الأول 1914 رئيساً لدائرة الشؤون الخارجية في وزارة الخارجية الألمانية. أما ياكه، فترأس دائرة الشؤون الاقتصادية. كما عُين ناومان رئيساً لدائرة وسط أوروبا. وترأس عالم الإسلاميات بيكر حلقة دراسية في وزارة الخارجية حول الأوضاع في منطقة الشرق الأدنى. أخيراً وليس آخراً، قام غروته خلال الحرب برحلات دعائية لمصلحة بلاده في هنغاريا ورومانيا والدولة العثمانية. حول نشاطات هؤلاء المستشرقين، راجع: Rathmann, pp. 107-108.

²³ (1860 – 1946) مستشرق ألماني من أصل يهودي قام برحلات استكشاف إلى المغرب والصحراء الغربية وسورية والعراق وأسيا الصغرى والخليج العربي، وأقام في مصر بين عامي 1896 و1909. وبين عامي 1896 و1909، وضع اثنتي عشر مجلداً تضمنت تقارير حول كيفية استغلال ألمانيا الإسلام والجامعة الإسلامية في صراعاتها ضد كل من بريطانيا وفرنسا. وقد وضع أوبنهايم عدة مذكرات تتعلق بالتطورات في مصر وشمال إفريقيا وعلاقة مصر ببريطانيا. راجع:

Hans Dirk Studt, Max von Oppenheim und der Nahe Osten – Lebensraum oder politische Intrige? In: *asien afrika lateinamerika*, 27 (1999), pp. 137 – 157.

لبريطانيا وفرنسا وروسيا للقيام بانتفاضات تنهك هذه الدول وتشغل قواتها في حال اندلع الصراع بينها وبين ألمانيا.²⁴

وعندما اندلعت الحرب، أدرك أوبنهايم ضرورة استحداث مؤسسة تتولى تشوير العرب والمسلمين ضد أعداء بلاده. فتقدم بمذكرتين إلى رئيس الوزراء الألماني بتاريخ 18 آب 1914، ومذكرة ثالثة في مطلع تشرين الأول حول أهمية تحريض المسلمين على الثورة في مناطق العدو.

وتعتبر المذكرة الأخيرة الأهم والأكثر تحديداً لكيفية محاربة ألمانيا "دول الوفاق الثلاثي" عبر إثارة العالم الإسلامي واستخدام "الجهاد المقدس" وصفة السلطان العثماني كخليفة، ونشر الدعاية باسمه، من خلال منظمة محددة الأهداف. وأكد أوبنهايم، إن كل المصريين والسوريين المسلمين، ومن ضمنهم علماء الأزهر والجماعات الإسلامية، هم مع الدولة العثمانية وألمانيا، وذلك كراهية بدولة الاحتلال بريطانيا، فيما يناصر الأقباط والمسيحيون السوريون والأرمن "دول الوفاق الثلاثي". وتوقع أن ينحاز المصريون والمسلمون السوريون إلى دول الوسط حالما تُلحق الهزائم بالبريطانيين في أوروبا، وتعتبر طلائع الجيش العثماني الزاحف من فلسطين إلى مصر قناة السويس. ولم يستثن أوبنهايم من مخططاته أهمية الخديوي عباس حلمي الثاني والطريقتين السنوسية في "ليبيا" والمهدية في السودان للتأثير في مصر. وخلص إلى أن سقوط مصر بأيدي العثمانيين بدعم من مستشارين ألمان، سوف يغير مجرى الحرب كلها.

وفي ختام المذكرة، حدد أوبنهايم الهدف المركزي لبلاده، وهو جعل الإسلام سلاحاً يخدم المصالح الألمانية. فقال: "إن الإسلام سوف يكون أهم أسلحتنا على الإطلاق في الصراع المجبرين على خوضه ضد إنكلترا، لأن علينا أن نخوضه بالسكين". وأضاف، لقد تمكنا من فرش الأرضية لثورة إسلامية عامة، وإن إمبراطور ألمانيا قد "... أدرك منذ الوهلة الأولى أهمية هذه اللحظة التي يمكن من خلالها الاستفاد من الشعوب الإسلامية، بعدما ثبت في نظر المسلمين إجلاله للإسلام وأظهر لأتباع هذا الدين المودة والمساعدة". وختم بالقول: "إن عشرين سنة من الإقامة في الشرق تجعلني مقتنع بأن جلالة الإمبراطور يحظى في كل العالم الإسلامي على الاحترام والتبجيل من أعماق القلوب"²⁵.

وقبل أيام قليلة على بدء الحرب، كتب الإمبراطور على هامش برقية وصلته من الجنرال فون ساندرز تتعلق برغبة الأخير في العودة إلى ألمانيا في حال اندلعت الحرب، فقال: "عليكم البقاء (في الدولة العثمانية) وشن الحرب وإضرام الثورة ضد بريطانيا. ألا يعرف" (ساندرز) أضاف الإمبراطور "حول التحالف القادم (مع الدولة العثمانية)، والذي عليه أن يتولى قيادته"²⁶. وختم بالقول: "... على قناصلنا وعملائنا في تركيا والهند تحريض كل العالم الإسلامي من أجل الثورة الضارية ضد هذا الشعب التاجر الصغير المكروه وعديم الضمير (البريطاني). فعندما ننزف نحن، فعلى بريطانيا أن تخسر الهند على الأقل"²⁷.

3- الدعاية الألمانية في المشرق العربي: وسائل وأدوات

²⁴ حول سياسة أوبنهايم في استغلال الجامعة الإسلامية وصفة السلطان العثماني كخليفة في مخططات ألمانيا الإمبريالية قبل الحرب، أنظر تقاريره في: PAAA, Orientalia Generalia 9, Nr. 1, Berichte Oppenheim, 12 vols. 1896 – 1909.

²⁵ PAAA/WK, Nr. 11, R 20937, vol. 2, Denkschrift Oppenheim, p. 125.

²⁶ نقلًا عن: Fischer, Griff nach der Weltmacht, pp. 139 – 140.

²⁷ Lothar Rathmann, Stossrichtung Nahost 1914 – 1918, Berlin (Ost) 1963, pp. 118 – 119.

حدد قنصل ألمانيا في دمشق ثلاث مهام تقع على عاتق الدعاية الألمانية، وخصوصاً في مجال اختصاص قنصليته، وهي: 1- إقناع السكان المحليين بقوة ألمانيا وفعاليتها. 2- تعريف هؤلاء السكان بالمنافع التي سيجنونها من جراء الانحياز إلى جانب ألمانيا، و3- الحسنة التي سيحصل عليها السكان المحليون في حال الاشتراك في الحرب ضد "دول الوفاق الثلاثي".²⁸

ولتحقيق هذه الأهداف، تأسس في برلين في العام 1915 "مكتب استخبارات الشرق" (Die Nachrichtenstelle für den Orient برئاسة أوبنهايم، وله فروع في مدن الدولة العثمانية وبلاد الشام، وذلك للتحريض على الجهاد والإشراف على الدعاية في البلدان الشرقية والإسلامية. واعتبر المستشرق أوبنهايم أن من أولويات "مكتب الاستخبارات" "تقوية مشاعر الصداقة بين الألمان وشعوب الشرق وتقريبهما من بعضهم البعض، من أجل تطوير المصالح المشتركة بينهم".²⁹ سبق ذلك بأشهر قليلة، قيام أوبنهايم وعدد من المستشرقين والخبراء الألمان بنشاط دعائي متواضع لبلادهم، من خلال استحداث دوائر متخصصة للتواصل مع الشعوب التركية والعربية والهندية والروسية. وبعد اتساع نطاق عمل "المكتب" خلال العامين 1915 و1916، أضيفت إليه دائرتان وهما: الفارسية والتركية - القانونية. وألحقت بكل هذه الدوائر أقساماً للتحريير وأخرى لإصدار الصحف. أما من ناحية أعداد الألمان العاملين في "المكتب" في العام 1915/1914، فبلغ اثنتا عشر من المستشرقين والموظفين القنصليين والتجار والمبشرين. ثم ارتفع العدد إلى 29 بعد ذلك التاريخ، في حين وصل عدد الشخصيات الشرقية العاملة مع "مكتب الاستخبارات" في برلين إلى عشرة أشخاص،³⁰ وعدد المكاتب الفرعية وصلات الدعاية في الدولة العثمانية إلى 70.

سار العمل في "مكتب استخبارات الشرق" في أربعة مجالات رئيسية: جبهات القتال مع العدو التي يحارب فيها جنود مسلمون حلفاء لألمانيا، وذلك للتشهير به بأنه يحارب جنود شرقيين ومسلمين؛ التأثير النفسي في أسرى الحرب من العسكريين المسلمين في المعتقلات الألمانية لجعلهم يلتحقون بالجيش العثمانية؛ الاهتمام بنشر الدعاية في الدول المحايدة وفي البلدان الإسلامية الحليفة لألمانيا، وإقامة علاقات شخصية مع دوائر شرقية في ألمانيا والدول المحايدة؛ وأخيراً الدعاية في ألمانيا نفسها، من خلال التبرير للرأي العام الألماني حول أسباب التحالف مع دولة إسلامية مكروهة، وهي الدولة العثمانية.³¹

وللاضطلاع بهذا العمل الواسع، استعان أوبنهايم بفريق من المستشرقين (Martin (Hartmann, Eugen Mittwoch, Curt Max Prüfer, Carl H. Becker وشابنغر فون شوونغن (Karl Emil Schabinger von Schowingen)، وهربرت مولر (Herbert. Müller). وقد توالى على إدارة "مكتب الاستخبارات" بعد أوبنهايم، على التوالي كل من شابنغر ومتفوخ. وتمكن أوبنهايم من أن يستقطب عدداً كبيراً من الشخصيات السياسية والفكرية الوطنية العربية والإسلامية والصوفية المعروفة، وذلك بهدف نشر المؤلفات والإشراف على إصدار الصحف والمجلات أو التحرير فيها، وإلقاء الخطب والترويج لما هو في مصلحة بلاده. فكان الدبلوماسيون والقناصل الألمان يقومون بتوزيع مواد الدعاية هذه في

PAAA/WK Nr. 11g, R21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

²⁹ رسالة غير مؤرخة عثر عليها المؤلف في PAAA, adh1, R 1517, vol. 8, Schabinger to Wesendonk. الملف المذكور.

³⁰ PAAA/Deutschland 126g adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914 –1918, pp. 1-4.

المشرق والمغرب العربيين، وتعاونهم في ذلك بالنسبة إلى المشرق العربي "شركة سكة حديد بغداد والمؤسسات المصرفية والتجارية والثقافية الألمانية، ومؤسسات أروذدي باك (Orosdi Back) النمساوية بفروعها في الأستانة وحلب وبيروت والقاهرة.³²

وعلى الصعيد الإعلامي، طُلب من الصحافة الألمانية توطيد صلاتها بالصحف المحلية الموجودة بكثرة في الأستانة وتزويدها بالأخبار عن مجريات الحرب، وأن تأخذ تقاريرها في الاعتبار التقاليد الشرقية وحساسيات الشرقيين وتتجنب استخدام العبارات المسيئة للإسلام والمسلمين.³³ كما طُلب منها الإسهاب في الأخبار حول الانتفاضات في الهند وطموحات الشعب الهندي وبقية البلدان الإسلامية للتخلص من الاستعمار.³⁴ وجرى أيضاً فصل القسم الفرنسي عن القسم الألماني في جريدة (Osmanischer Lloyd)، التي تأسست في الأستانة العام 1908 لمجابهة دعاية "دول الوفاق الثلاثي"، وذلك في صحيفتين منفصلتين وبتمويل من تجار وصناعيين ألمان، بهدف إيصال آراء ألمانيا إلى المتقنين العرب والأتراك. وعملت هذه الجريدة على تزويد الوكالات العربية والصحف العربية المحلية بالأخبار.³⁵

كما قام "مكتب استخبارات الشرق" بإنشاء صحف ونشرات خاصة به باللغة الألمانية منذ نيسان 1915، وأهمها: Der Korrespondenzblatt der Nachrichtenstelle für den Orient و Neue Orient و Stimmen des Orients ومجلة "الجهاد" (El-Dschihad) الأسبوعية باللغات الشرقية، والهدف من الثلاث الأولى، هو نقل المعلومات الصحيحة عن الشرق والإسلام إلى الرأي العام الألماني، فيما كانت النشرة الأخيرة للتأثير في الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية كي يعاد تجنيدهم والقنال ضمن وحدات الجيش العثماني.

كذلك، دعم "مكتب الاستخبارات" الصحف الإسلامية التي تأسست في برلين، ومنها "العالم الإسلامي" (Die Islamische Welt) وصحفاً عربية كـ "العهد" و"الرأي العام" و"الشرق" و"الاتحاد العثماني". كما كانت "جورنال دو بيروت" (Journal de Beyrouth) لصاحبها جرجي حروفوش تؤيد السياسة الألمانية وتحصل على دعم مالي من البنك الألماني وتنشط كوكالة للإشراف على الاشتراكات والمبيعات في الطرقات.³⁶ وقد وصف قنصل ألمانيا في بيروت الصحيفة الأخيرة بأنها "مدافع موثوق فيه عن المصالح العثمانية والألمانية"، تعمل على نشر أخبار الحرب نقلاً عن المصادر الألمانية ومقتطفات من الصحافة الألمانية.³⁷ وفي الوقت نفسه، حصلت جريدة "أبابل" البيروتية الأسبوعية لصاحبها محمد الحبال على دعم ألماني من أجل إعادة إصدارها في دمشق. وعملت القنصلية الألمانية في حيفا على تقديم دعمها المالي لصحيفة "المهاجر" التي كانت تصدر لحساب الجالية الجزائرية في دمشق. كما تقربت القنصلية

32 PAAA Akten betr. den Krieg 1914. Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde. Allgemeines vom Juli 1914 – 30 Nov. 1914, Bd. 1, Der Weltkrieg R 20936, , A 17810, No. 11, Oppenheim to Bethman-Hollweg, No. 1, Berlin, Aug. 18th 1914.

33 ك: "الهنود الديمويون" و"المغاربة السفاحون"، و"الشياطين السود" للدلالة على الأفارقة الزوج. أنظر: Farah, p. 240

34 PAAA/WK, Nr 11g, R 20937, Akten betreffend den Krieg 1914: Unternehmungen und Aufwiegelung gegen unsere Feinde, vol. 2, Denkschrift Oppenheim: "Die Revolutionierung des islamischen Gebieten unserer Feinde.

35 حول تأسيس جريدة اللويد، أنظر: Farah, pp. 85 –102. وحول فصلها إلى جريدتين، المرجع نفسه، ص 261 – 268.
36 Jacobsen, pp. 98-99.

37 PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Mutius to Wagenheim, No. 3295, Beirut Dec. 9th, 1914.

المذكورة إلى محمد كرد علي صاحب "المقتبس"، وعملت على نقل تحرير جريدة "المفيد" لعبد الغني العريسي من بيروت إلى دمشق بسبب قوة تأثيرهما على الرأي العام.³⁸

ومن نشاطات "مكتب الاستخبارات" في الدولة العثمانية تفعيل عمل "الرابطة الألمانية - التركية" (Deutsch-Türkische Vereinigung) التي كانت تنشط منذ إنشائها في شباط 1914 على تدعيم العلاقات الثقافية بين ألمانيا والسلطنة وتعزيزها.³⁹ وفي نهاية العام 1915، أفتتح "المركز الاقتصادي الألماني - العثماني" (Deutsch-Türkische Wirtschaftszentrale) في العاصمة العثمانية. وفي نيسان 1917، دُشن في الأستانة "بيت الصداقة الألمانية - التركية" (Haus der deutsch-türkischen Freundschaft) بحضور شخصيات دبلوماسية ألمانية وعثمانية.⁴⁰ وجاء تفعيل هذه المؤسسات الثقافية والاقتصادية بعد نصيحة وجهها أوبنهايم إلى المسؤولين الألمان بضرورة الالتفات إلى الشأن الاقتصادي والثقافي في الدولة العثمانية، وذلك بعدما حقق النفوذ الألماني العسكري في الجيش العثماني، عبر المستشارين والخبراء الألمان، مكانة مرموقة.⁴¹ وفي هذا المعنى، اقترحت الفتنصالية الألمانية في دمشق، بسبب عدم وجود أية مدرسة ألمانية في تلك المدينة، فتح مدارس ألمانية بكثرة فيها من أجل التعويض عن إغلاق المدارس الفرنسية والبريطانية والروسية.⁴²

أما عن نشاطات "مكتب الاستخبارات" في ألمانيا، فكان أهمها إنشاء "معسكر الهلال" (Halbmondlager) في ناحية فونسدورف (Wünsdorf) ببرلين في تموز 1915، و"معسكر فاينبرغر" (Weinbergerlager) في منطقة تزوسن (Zossen) قرب مدينة بوتسدام. وضم "معسكر الهلال" مسجداً بمئذنة خشبية ارتفاعها 23 متراً. كانت الغاية من المعسكرين هي إيواء الأسرى المسلمين الذين كانوا يحاربون في جيوش "دول الوفاق الثلاثي" ووقعوا في أسر القوات الألمانية، وخصوصاً الهنود والعرب في شمال إفريقيا، أو المسلمين من التتار، ومعاملتهم معاملة حسنة بإشراف ضباط يلمون باللغات الشرقية، والسماح لهم كذلك بممارسة شعائرتهم الدينية، وفي مقدمها صلاة الجمعة.⁴³ والهدف من وراء ذلك، هو نشر الدعاية حول مواقف ألمانيا المتسامحة من الإسلام، والحصول بالتالي على استحسان العالم الإسلامي، وإعطاء المعتقلين المسلمين الانطباع بأنهم ليسوا أسرى وإنما "ضيوفاً" على ألمانيا وبالتالي إقناعهم بالانخراط في الجيش العثماني ضد "دول الوفاق الثلاثي".⁴⁴

³⁸ PAAAWK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardegg to Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

³⁹ Max Freiherr von Oppenheim, Die Nachrichtensaal-Organisation und die wirtschaftliche Propaganda in der Türkei, ihre Übernahme durch den Deutschen Überseedienst, Streng vertraulich !, Berlin 1917, pp. 6-7.

⁴⁰ Norddeutsche Allgemeinen Zeitung, No. 118, 30. April, 1917.

⁴¹ Farah, p. 272.

⁴² PAAAWK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardegg to Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

⁷¹ Müller, p. 219.

⁴⁴ Müller, p. 219 ؛ أنه/هاينه، مرجع سبق ذكره، ص 211.

لقد حُدد الهدف من إنشاء معسكري الاعتقال على أنه من أجل "استغلال الأسرى المسلمين والهنود لأغراضنا (ألمانيا) السياسية"⁴⁵. وهذه "الأغراض السياسية" عبّرت عنها وزارة الخارجية الألمانية في مذكرة رفعتها إلى الإمبراطور وليم الثاني، وجاءت على الشكل التالي: "من أجل التعبير عن علاقات الود المعلنة بين الدولة الألمانية والشعوب الإسلامية والتي تحظى على رعاية جلالتك، ومن أجل التأثير في المحاربين المسلمين في جانب العدو، فسوف تتم معاملة الأسرى المسلمين (الذين يقعون في يد الجيش الألماني) معاملة مميّزة. وسوف يتمتع هؤلاء بكل الحرية تحت إشراف ضباط منتقون"⁴⁶. وضم معسكرا الاعتقال نحو 15 ألفاً من الأسرى المسلمين في العام 1916.⁴⁷ إشارة إلى أن بريطانيا اتبعت الأسلوب الألماني نفسه، وذلك عبر إطلاق سراح الأسرى العرب لديها، وخصوصاً الضباط العراقيين الذين خدموا في الجيش العثماني، كي يحاربوا العثمانيين مع القوات العربية التابعة للشريف حسين.⁴⁸

ومن أجل تفعيل الدعاية بين الأسرى المسلمين، جاء إنشاء مجلة "الجهاد". وتألفت هيئة تحريرها من المستشرقين الألمان والمسلمين، ومنهم عبد العزيز جاويز (1876-1929) وصالح الشريف التونسي (1869-1920) ومحمد خضر حسين (1876-1958) ومنصور رفعت (1883-1926) وعبد الرشيد إبراهيم (1835-1944) وغيرهم.⁴⁹ وكان بعض هؤلاء يزور معسكري الاعتقال من وقت إلى آخر لإلقاء المحاضرات والخطب على الأسرى.

قامت استراتيجية "مكتب الاستخبارات" على تركيز الدعاية في آسيا الصغرى وسورية والعراق انطلاقاً من العاصمة العثمانية. فتأسست قاعة أخبار مركزية في الأستانة تدار من قبل السفارة الألمانية هناك، ويتفرع منها مراكز وصلات أخبار في الولايات والمدن. وقد عملت القاعة المركزية على تحرير التقارير والأخبار التي تصلها من برلين عن مجريات الحرب وتزويد المراكز والصلات بها من أجل إعادة نشرها في الصحف المحلية، فضلاً عن عرض الأفلام الدعائية، وتوزيع الصور عن المعارك والمناشير والكتيبات والمجلات المترجمة إلى 15 لغة إفريقية وآسيوية و9 لغات أوروبية. وبشكل عام، وصل عدد عناوين المنشورات التي أصدرها "مكتب الاستخبارات" بين تشرين الأول العام 1914 وتموز العام 1918 إلى 1012 عنواناً، طبع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.⁵⁰

أما فيما يتعلق بتركيا الآسيوية، فبلغ حجم توزيع مواد الدعاية خلال العام 1915 ما بين 500 و3000 من كل قطعة. وما لبث أن ارتفع هذا الرقم إلى 10 آلاف نسخة باللغة العثمانية و8 آلاف نسخة باللغة العربية. وكان أعلى رقم للتوزيع، هو على التوالي في مدن حلب وبغداد وبيروت ودمشق والمدينة المنورة. واعتُبر توزيع المنشورات بين الحجيج في الأماكن المقدسة

⁴⁵ نقلاً عن: Gerhard Höpp, Arabische und islamische Periodika in Berlin und Brandenburg, Berlin 1994, p. 9.

⁴⁶ نقلاً عن: Iskander Giljazov, Die Muslime Russlands in Deutschland während der Weltkriege als Subjekte und Objekte der Grossmachtspolitik, in: Gerhard Höpp/Brigitte Reinwald (Hgg.), Fremdeinsätze. Afrikaner und Asiaten in europäischen Kriegen, 1914-1945, Berlin 2000, p. 144.

⁴⁷ Gerhard Höpp, Die Wünsdorfer Moschee: Eine Episode islamischen Lebens in Deutschland, 1915-1930, in: Die Welt des Islams 36, 2(1996), 204-208.

⁴⁸ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت 1971، ص 71.

⁴⁹ Höpp, Arabische und islamische Periodika, p. 9.

⁵⁰ PAAA/ Deutschland 126g, adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914-1918.

للإسلام مهم جداً للدعاية الألمانية، وذلك بسبب أهميتها الدينية للمسلمين. وحتى بعد انطلاق الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية، ظلت الدعاية الألمانية قادرة على ما يبدو على التحرك في الجزيرة العربية. ويذكر دوبره أن منشوراً بالعربية اكتشف في خريف 1916، وتضمن اتهامات موجهة إلى فرنسا بأنها تسعى إلى تدمير الإسلام والأماكن المقدسة ومكة المكرمة ونقل الحجر الأسود إلى متحف اللوفر.⁵¹

جدول رقم (3) النسب المئوية لتوزيع مواد الدعاية الألمانية في آسيا الصغرى والمشرق العربي⁵²

المدينة	النسبة المئوية	المدينة	النسبة المئوية
استانبول	4	بيروت	10
أضنه	1	القدس	10
حلب	5,20	الموصل	7
بغداد	5,20	مناطق أخرى	2
دمشق والمدينة	25		

وبالنسبة إلى المغرب الأقصى، وخصوصاً منطقة الاستعمار الإسباني في الريف، فقد تسربت الدعاية الألمانية عبر قنوات دبلوماسية ألمانية في مدريد وبرشلونة.⁵³ وقامت الدعاية الألمانية بتحريض القبائل ضد فرنسا وتوزيع الأموال عليها.⁵⁴ أما في شأن مصر، فعين أوبنهايم مندوبين له في روما و نابولي وأثينا لجمع الأخبار عن أحوالها. وقام بتشكيل قلمين للمخابرات في نابولي وبيروت وطرابلس (ليبيا) من أجل الاتصال بها ودفع شعبيها للثورة في الوقت المناسب. كما جعل هناك شيفرة للاتصال بين الإسكندرية والأستانة وفيينا.⁵⁵

عن أنشطة "المكتب"، إرسال مبعوثين ألمان إلى تلك البلدان الإسلامية، وبخاصة إلى الهند ومصر وشمال إفريقيا،⁵⁶ والحصول على المعلومات الاقتصادية والسياسية والعسكرية في تلك المناطق وفي الدول المحايدة وإقناع شعوبها وحكوماتها بوجهة النظر الألمانية.⁵⁷ كما يندرج تحت هذا العنوان، تشكيل المسلمين بأهداف "دول الوفاق الثلاثي" من جراء الحرب.

جدول رقم (1) البعثات الألمانية لتحريض العالم الإسلامي على الثورة ضد دول الوفاق الودي⁵⁸

المبعوثون/الناشطون	المهنة الأساسية	1918-الوظيفة خلال 1914	البلدان التي زارها
Baron Max von Oppenheim	عالم آثار ودبلوماسي	رئيس دائرة الاستعلام العسكري	مصر والعراق وسورية والدولة العثمانية والجزائر
Col. Hermann Frobenius	ضابط		العراق وفارس

⁵¹ Dupre, p. 172.

⁵² Jacobsen, German Attempts, p. 98.

⁵³ Fischer, pp. 152 – , Walter B.Harris, France, Spain and the Rif, London 1927, pp. 59-60;

⁵⁴ 153;

⁵⁵ Walter B.Harris, pp. 59 –63.

⁵⁶ لطيفة سالم، ص 347.

⁵⁷ حول هذا الموضوع، أنظر ملفات الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية في برلين المتعلقة بالحرب العالمية الأولى وكيفية

إثارة المسلمين ضد دول الوفاق الثلاثي: Der Weltkrieg Nr. 11 R 20936f.,

Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde.

⁵⁷ Heine, p. 197.

⁵⁸ نقلاً عن: Faligot/Kaufer, Le Croissant et la croix gammee, p. 36.

مصر	سفير في واشنطن ثم في استانبول	دبلوماسي	Johann von Berntorff
الدولة العثمانية	الولايات المتحدة	ضابط	Fritz von Papen
العراق ومصر والدولة العثمانية		طبيب وعالم آثار	Dr. Konrad Preusser
العراق وفارس	رئيس بعثة في طهران	عالم جيولوجيا	Oskar Ritter von Niedermayer
العراق وفارس وكرديستان	تنظيم فدائيين في فارس	دبلوماسي	Wilhelm Wassmuss
أفغانستان وفارس	بعثة إلى فارس وأفغانستان	دبلوماسي	Werner-Otto von Hentig
دمشق وفلسطين	بعثة إلى الجزيرة العربية	محامٍ ودبلوماسي	Fritz Grobba
الجزائر وتونس والسودان	بعثة إلى الجزائر	عالم آثار	Leo Frobenius
طنجة والمغرب وإسبانيا	بعثات إلى المغرب	ضابط	Hans von Kalle
الجزيرة العربية والحجاز والسودان	1917	?	Carl von Neufeld

4- مضامين الدعاية الألمانية

هدفت الدعاية الألمانية، تقارير وكتب وكتيبات وصحف ومجلات ومناشير وصور فوتوغرافية وبطاقات بريدية، التي كانت ترسل إلى المراكز العربية والإسلامية للوكالة، فضلاً عن الرسائل المفتوحة من قيادات وطنية عربية وإسلامية إلى شخصيات سياسية دولية،⁵⁹ إلى إثارة العالمين الإسلامي والعربي ضد "دول الوفاق الثلاثي". يُضاف إلى ذلك، اتصالات القناصل الألمان بالسكان المحليين⁶⁰ وبالشخصيات القيادية والعسكرية والدينية والثقافية والإعلامية وبأعيان المدن لنشر الدعاية والمناشير وعرض الأفلام عن الحرب،⁶¹ وكذلك المحاضرات التي كان يلقيها المنفيون العرب والإسلاميون في ألمانيا على الألمان وعلى الأسرى المسلمين في معسكرات الاعتقال وفي الأعياد الإسلامية ببرلين.⁶² واللافت، أن معظم مواد الدعاية التي كانت توزعها الأجهزة الألمانية لا تحمل توقيعاً، وتصاغ بأسلوب يعطي الانطباع بأن الدعوة إلى تأييد ألمانيا إنما تأتي بمبادرة من عرب ومسلمين. وفي كثير من الأحيان، كانت الرسائل والمقالات تحرر بأسماء مستعارة أو وهمية.

وأبرز ما شددت عليه الدعاية الألمانية هما مسألتان: توطيد علاقات المسلمين بالسلطان العثماني كخليفة، والحصول على تأييد المسلمين ودعمهم لسياسة ألمانيا ودول الوسط. من هنا، ركزت هذه الدعاية على شرعية الخليفة العثماني وأحقية في الخلافة وحمايته لبيضة الإسلام، وعلى أن

⁵⁹ أسكويت، رئيس وزراء بريطانيا و سلطان المغرب على سبيل المثال. أنظر: - 204، 197-194، Gottfried Hagen., pp. 207.

وعلى كل حال، سنتطرق إلى المؤلفات التي صدرت عن الشخصيات العربية في إطار الدعاية لألمانيا عند الحديث عن المواقف العربية من الدعاية الألمانية.

⁶⁰ مجالسة قنصل ألمانيا في دمشق للسكان في المقاهي والقيام بالدعاية لبلاده. راجع: Jacobsen, p.99.
⁶¹ PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

⁶² وخلال عام 1915، جرى في برلين الاحتفال بعيد الأضحى بحضور كبار الشخصيات المدنية والعسكرية الألمانية. وكتبت الصحف الألمانية في افتتاحياتها "إن الأمة الألمانية كلها تحتفل الأضحى مع الأتراك وليعش السلطان". نقلاً عن: Irmgard Farah, Die deutsche Pressepolitik, Beirut 1993, p.249.
PAAA/WK, Nr. 11g, /R21137, vol. 15, A 31999, Bl. 47.

الجامعة الإسلامية هي تضامن إسلامي بعيد عن التفرقة المذهبية بين السنة والشيعية، فيما الجهاد هو واجب على كل مسلم ولا يشكل خطراً على المسيحية.

ومن جهة أخرى، ركزت الدعاية الألمانية على أوامر الصداقة والود التي تجمع ما بين الألمان والمسلمين،⁶³ وعلى أخوة السلاح بين الجيشين الألماني والعثماني والتحالف المقدس بينهما.⁶⁴ وهدفت إلى إعطاء صورة مشرفة عن ألمانيا وأهدافها النبيلة من الحرب، وأنها تسعى إلى مساعدة العالم الإسلامي على الارتقاء في مرحلة ما بعد الحرب، وأن تحالفه معها ليس من دون أساس، وإنما هو مع أقوى قوة في أوروبا لناحية متانة اقتصادها ومالياتها وصناعاتها وثقافتها وبنائها التحتية، هذا فضلاً عن حسن تنظيم قواتها العسكرية وتضامن الشعب الألماني مع جيشه وقيادته.⁶⁵ وفي هذا المعنى، جرت طباعة كتيب "الحياة الاقتصادية في ألمانيا قبل الحرب وأثناءها" إلى خمس لغات شرقية.⁶⁶

جدول رقم (4) تفوق ألمانيا على أعدائها وفقاً للدعاية الألمانية⁶⁷

الدولة	عدد السكان (مليون نسمة)	عدد الأميين من بين 10 آلاف جندي	عدد الكتب التي تطبع سنوياً	طول سكك الحديد (كلم)	حجم الثروة القومية بمليارات الماركات	مقارنة لحجم تجارة ألمانيا الخارجية مقابل بريطانيا وفرنسا (دون المستعمرات)	عدد مراكز البريد
ألمانيا	68	2	34800	63700	375		51200
بريطانيا	46	100	12100	37700	*345	2 ضعف	24500
فرنسا	39	320	9600	51200	245	2.5-3	14600

* هناك خطأ على ما يبدو ما بين اللغتين العربية والعثمانية فيما يتعلق بحجم ثروة بريطانيا. فبقية للكتابة العثمانية، فهي 345 مليار مارك. أما بالنسبة للكتابة العربية، فهي 545 مليار مارك. والصحيح هو 345 مليار مارك، ذلك أن الهدف من هذا الرسم هو إظهار تفوق ألمانيا على دولتي الوفاق الودي بريطانيا وفرنسا.

بالإضافة إلى ذلك، لفتت الدعاية إلى المعاملة الكريمة التي يلقاها الأسرى المسلمون في معسكراتها والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية والاحتفال بالأعياد الإسلامية. وأظهرت الإمبراطور وليم الثاني على أنه صديق للمسلمين ويقدر أبطالهم التاريخيين،⁶⁸ ولم تحاول أن

⁶³ Gottfried Galli, Dschihad. Der heilige Krieg des Islams und seine Bedeutung im Weltkriege unter besonderer Berücksichtigung der Interessen Deutschlands, Freiburg 1915, p. 38.

⁶⁴ PAAA Türkei 177/R 14032, Libanon, vol. 11, Löytved to Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 1914.

⁶⁵ Farah, pp. 231 –232.

⁶⁶ PAAA/Deutschland 126g, adh1, R 5135, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient.

⁶⁷ تعود المعلومات إلى كتيب بعنوان "الظلم والحق". ويحتوي على غلاف ملون وعلى منشورين وثلاثة عشر رسماً كاريكاتورياً ملوناً يحمل كتابات باللغتين العربية والعثمانية. وكانت هذه الكتيبات ترسل إلى متقنين في الدولة العثمانية في إطار الدعاية الألمانية ضد دول الوفاق الودي. راجع في هذا الخصوص الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية: PAAA R 1531, Deutschland Nr. 126g, adh1. Vol. 22, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient وفي هذه المناسبة، يشكر المؤلف الدكتورة ماريا كايبرت (Maria Keipert) المسؤولة عن الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية – برلين (دائرة 117) على المساعدة والإجازة في سبيل الحصول على صور ملونة عن الكتيب المذكور. كما يشكر البروفيسور أكسل هافمن (Axel Havemann) من جامعة برلين الحرة على مساعدته القيمة في تأمين تصوير الكتيب إيصال الصور المستنسخة إلى بيروت.

⁶⁸ على سبيل المثال: زيارة الإمبراطور لضرخ السلطان صلاح الدين بدمشق في تشرين الثاني عام 1898 حيث وضع عليه إكليلاً من الزهر وقال: "إن صلاح الدين كان الآية الكبرى في زمانه لناحية الشهامة والعدل والكرم". أنظر: عبد

تنفي الشائعات التي كانت تسري هنا وهناك حول اعتناقه الإسلام سرّاً،⁶⁹ وبقرب تحوّل شعبه إلى الدين الجديد،⁷⁰ لما في ذلك من تأثير في المسلمين. ويندرج في سياق السياسة الإسلامية هذه، إهداء الإمبراطور ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق ثرياً بمناسبة الحملة العثمانية على السويس.

إن إلقاء نظرة متفحصة على مضامين بعض المنشير والكتيبات الدعائية الألمانية يظهر بوضوح كيفية توظيف ألمانيا لمشاعر المسلمين وعواطفهم الدينية وطموحاتهم وتطلعاتهم الوطنية في التحرر والتخلص من الاستعمار من أجل صراعها مع "دول الوفاق الثلاثي". وجاء في أحد المنشير الموجهة إلى المسلمين والتي وزعتها أجهزة الدعاية الألمانية: إن "ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا، كل منها صارت الآن ظهيرتكم وعونكم على حرب أعدائكم فأنجدوهم جميعاً، وما عهدنا الدولة الألمانية إلا يداً بيضاء نقية من كل اعتداء عليكم".⁷¹

ويحث منشور آخر المصريين على النهوض من سباتهم وإعلان الثورة ضد الإنكليز مستقراً حميتهم الإسلامية والشرقية بالقول: "أيها الشعب المصري وأبناء الإسلام جميعاً هل لكم في أن تنتهبوا من رقدتكم وتقيقوا من سكرتكم وتذبّوا عن حيظتكم وتعملوا إلى تحريركم من يد الظالم المستعبد لكم الذي قضى على بلادكم ودينكم وإحساسكم الشرقي وسيقضى على أعقابكم ما دتم تحت نير العبودية ترتعون. هل لكم في أن تذكروا الشهامة العربية والشعور بوحدة الإسلام وتقتدوا (بالإبطال) ... ويكون لكم أيضاً عصر مصرية يخلدها لكم التاريخ ما توالى العصور؟ فنحن نسألكم متى تكون العصر المصرية؟ متى تكون العصر المصرية؟"⁷²

ويقول منشور آخر: إن ألمانيا والدولة العثمانية تتصدیان لمحاولات "دول الوفاق الثلاثي" تدمير الإسلام وهدم الكعبة وقبر الرسول. ويتساءل، عما إذا كان المسلمون يرتضون مصيراً كهذا لدينهم ومقدساتهم. فيدعوهم إلى الوقوف وقفة رجل واحد. ويخاطب حميتهم الإسلامية ضد أعداء الإسلام وألمانيا، بالقول: "فانهضوا (أيها المسلمون) لأمر الله ولأمر خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة السلطان محمد رشاد الخامس نصره الله، الذي أعلن الجهاد المقدس في سائر أقطار الأرض على الدول الثلاث المذكورة (بريطانيا وفرنسا وروسيا) ... إن دولة الإسلام والألمان والنمسا معكم والحال بيننا وبينهم واحدة، وإن من يكون مع جيش الأعداء وفي صفوفهم فحرام عليه أن يحارب الدول المتفقة مع الإسلام فإنه

الرووف سنو، رحلة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة، في: تاريخ العرب والعالم (بيروت)، 180 (1999)، ص 75-76. وفي السياق عينه، أهدى الإمبراطور في حزيران 1915 ضريح صلاح الدين ثرياً في محاولة لكسب تأييد السكان المسلمين في بلاد الشام لمصلحة الحملة العثمانية على السويس. وقال لويبتد (Löytved)، قنصل ألمانيا في دمشق، في هذه المناسبة "إن الإمبراطور وليم الثاني أراد إهداء هذه الثريا بمناسبة زحف الجيش العثماني على مصر وتأييداً لرابطة الأخوة في السلاح بين الجيشين الألماني والإسلامي... (و) لتكون الثريا ذكرى لهذا الزحف الدال على العزيمة والشجاعة". وأضاف القنصل: "أني أفتخر بهذه الرابطة الموحدة التي تأكدت بين الدولة العثمانية وثلاثمائة مليون مسلم المربوطة بالخلافة العظمى وبين إمبراطور ألمانيا وملته". أنظر:

PAAA/Türkei 177/R 14032, vol. 11, Löytved an Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 22nd 1914.

وقارن بـ:

C.L. Sulzberger, German Preparation in the Middle East, in: *Foreign Affairs* 50, 3(1942), pp. 663 – 665.

69 George Lenceowski, *The Middle East in World Affairs*, pp. 50 –51.

70 قارن بـ: Richard Schäfer, *Islam und Weltkrieg*, Leipzig 1915, p. 5.

71 عنوان المنشور "ألمانيا ودولة الخلافة"، في: Hagen, pp. 186 –187. أنظر الملحق.

72 PAAAWK, Nr. 11 g, R 21123, vol. 1, Semiar für orientalische Sprachen to Unterstaatssekretär im A.A.. L 365116, A 20625, Berlin den Sept. 5th 1914. Mit Anh.

مسؤول عند الله فيجب عليه أن يلتحق بصفوف الألمان والنامسا (كذا) والعثمانية وعليه أمان الله ورسوله ويكون معزراً مكرماً ومن فعل خلاف ذلك فقد باء بغضب الله...⁷³.

وبعدما عدد منشور آخر سياسة "دول الوفاق الثلاثي" في تقاسم العالم الإسلامي ونهبه وتدنيس مقدساته، وإخضاع بريطانيا وروسيا وفرنسا على التوالي 100 مليوناً و40 مليوناً و30 مليوناً من المسلمين لحكمها، يختم بلفت انتباه المسلمين إلى أعدائهم، فيقول: "هؤلاء هم أعداؤكم وهذه هي أفعالهم معكم وهذه هي أفكارهم فيكم وفي دينكم وفي كتابكم (المقدس) ودينكم وبينكم الحرام"....⁷⁴ ويوجههم مباشرة إلى ما يستوجب عليهم القيام به تجاه فرنسا بالقول: "اقتلوا جميع الفرنسيين اقتلوهم جميعاً جميعاً... اذبحوا الفرنسيين اذبحوهم جميعاً جميعاً"⁷⁵. أما حلفاء الإسلام ومناصريه ومحرريه، فهم الألمان تبعاً لما جاء في المنشور. فالله "قيض... الأمة الألمانية صاحبة الإخلاص للإنسانية والعالم الإسلامي وصديقة خليفتنا المعظم... وعقدوا النية جميعاً على تخليصكم من يد أعداء الله الموسكوف والإنكليز والفرنسيين، وأعلن الجهاد بإرادة من أمير المؤمنين، وصار الجهاد بذلك فرض عين على كل مسلم ومسلمة كبير وصغير". ويختم المنشور بالتحذير من الاستماع إلى أكاذيب الأعداء وخداعه.⁷⁶

وتحت عنوان "الجور والعدالة"، أي جور دول الوفاق وعدالة ألمانيا وحليفاتها، ذكّر منشور دعائي، إن انتصار ألمانيا على أعدائها هو كي "يصبح الشرق حراً من مستعبدية طاهراً من الأرجاس والحشرات التي نبتت في أرجائه وكادت تنخر عظامه وتقضي عليه القضاء الأخير". ويختم بالقول: "إن الملايين العديدة من المسلمين في استطاعتهم تمزيق قيود الذل والاسترقاق التي كبلهم بها مغتصبو بلادهم لو أتيح لهم أن يستعملوا قوتهم وبأسهم"

5- الفكر السياسي العربي والدعاية الألمانية

في إطار تحقيق أهدافها، سعت ألمانيا مطلع الحرب للتقرب إلى الشريف حسين وضمه إلى دول الوسط ضد بريطانيا وتكليفه بالدعاية لها في العالم الإسلامي، نظراً إلى ما يتمتع به من رصيد عالٍ ومكانة رفيعة. وفي أيار 1915، حدث لقاء في الأستانة بين أوبنهايم والأمير فيصل، نجل الشريف حسين، أكد خلاله الأمير ولاء أبيه للعثمانيين واستعداده لخدمة أهدافهم ضد "دول الوفاق الثلاثي". وتمحور الاجتماع حول خطة كبرى غايتها إحداث انتفاضة إسلامية من الهند حتى مصر تحت شعار "الجهاد المقدس"، وأن يقوم الشريف حسين في الوقت المناسب بإرسال أولاده على رأس وحدات حجازية للمشاركة في حملة عثمانية أخرى على السويس. كما تعهد الشريف بأن يتولى الترويج للجهاد في البلدان الإسلامية وإرسال تقارير عن أوضاع تلك البلدان، فضلاً عن تقرير يقدمه إلى أنور باشا كل أسبوعين عن الأوضاع في الجزيرة العربية.⁷⁷ ويذكر فيلاغو وكوفار أن أوبنهايم وعد فيصل بعرض مصر بعد تحريرها من البريطانيين.⁷⁸ وفيما أبقى الشريف حسين على خياراته مفتوحة إزاء التحالف مع ألمانيا

⁷³ نقلًا عن: Hagen, pp. 220–221.

⁷⁴ نقلًا عن: Hagen, pp. 218–219.

⁷⁵ منشور بعنوان "العصر الصقلية" في: PAAA/WK Nr 11g, R 21123, vol. 1, A 20625, Seminar für orientalische Sprachen to Staatssekretär, Berlin Sept. 5th 1914.

⁷⁶ نقلًا عن: Hagen, pp. 218–219.

⁷⁷ PAAA/WK, Nr. 11g, R 21133, vol. 11 A 17149, Wagenheim to Bethmann Hollweg, No. 310, Pera May 22nd 1915; Suppl. 1 & 2 to report 310, Pera May 15th 1915.

Filagot/Kaufer, p. 30.

78

والسلطنة العثمانية من خلال اتفاق فيصل - أوبنهايم، كان الألمان يتصلون بعلماء الدين في النجف وتمكنوا من حثهم على إعلان "الجهاد المقدس" ضد بريطانيا ومقاومة حملتها على العراق.

ومن أبرز الشخصيات العربية التي تعاونت مع ألمانيا، إما اعتقاداً منها بسياستها الإسلامية المعلنة وتحالفها مع الدولة العثمانية وصراعها مع "دول الوفاق الودي"، وإما بدافع كراهيتها لدول الاستعمار التقليدية، وإما بدافع الخوف على مصير المنطقة العربية في حال انهيارت الدولة العثمانية: شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما سعى الخديوي عباس حلمي بدوره للحصول على دعم ألمانيا والدولة العثمانية لاستعادة منصبه في مصر. وفي العراق، برز عزيز علي المصري، مؤسس جمعية "العهد"، فمال إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين واعتقاده بضرورة الحفاظ على الدولة العثمانية، من دون أن يتمخض عن هذا "الميل" علاقة مباشرة معها. إشارة إلى أن الزعامات العربية المتعاملة مع ألمانيا كانت تحركها إيديولوجيات ومصالح مختلفة. وقد أثبتت الحرب أن تعامل الزعامات العربية مع ألمانيا، وإن اختلفت أساليبه وطرقه، كان بدافع الاستفادة من الصراع الدولي من أجل قضيتها، وتحت شعار "عدو عدوي صديقي". كما كان للرأي العام في سورية ومصر موقفه تجاه ألمانيا وسياستها الإسلامية خلال الحرب.

جدول رقم (2) الشخصيات العربية التي تعاملت مع المؤسسات والأجهزة الألمانية خلال الحرب⁷⁹

الاسم	الجنسية	الولادة والوفاة	النشاط	ملاحظة
أبو الفضل، سعيد مأمون	من الجزيرة العربية	1891 - ؟	في مكتب الاستخبارات وضابط في الجيش الألماني في البلقان	نشر كتاب وعدة مقالات في ألمانيا حول الإسلام
أرسلان، شكيب	لبناني	1869 - 1946	نشاط سياسي في ألمانيا عامي 1917 و1918	أصدر حوالي 40 مقالاً في ألمانيا عن علاقة الشرق والمسلمين بالحرب
باش حانبا، محمد	تونسي	1881 - 1920	تعاون مع المخابرات الألمانية	وضع مؤلفات بالفرنسية حول تونس والسياسية الفرنسية تجاهها
بوكابويه، رباح (الحاج عبد الله)	جزائري	1875 - ؟	عمل مع مكتب الاستخبارات في برلين	فر من الجيش الفرنسي والتحق بالألمان - نشر دراسات عدة عن الجهاد في المغرب العربي
التونسي، صالح الشريف	جزائري	1869 - 1920	عمل مع مكتب الاستخبارات	أسس لجنة من أجل استقلال تونس والجزائر
جاويش، عبد العزيز،	مصري	1876 - 1929	عمل مع مكتب الاستخبارات	أحد مؤسسي مجلة العالم الإسلامي - برلين
حمزة، عبد الملك	مصري	1886 - ؟	عمل مع مكتب الاستخبارات	عضو في الحزب الوطني. عُرف بابن مروان
الخضر، محمد حسين	تونسي	1876 - 1958	تعاون مع مكتب الاستخبارات	كتب مقالات للتأثير على الأسرى المسلمين في قبضة ألمانيا
رفعت، منصور مصطفى	مصري	1883 - 1926	عمل مع مكتب الاستخبارات	انشق عن الحزب الوطني عام 1918، وله العديد من الدراسات والمقالات
عباس حلمي (الثاني)	خديوي مصر	1874 - 1944	عمل مع الحكومة الألمانية	حاول استغلال الألمان والبريطانيين من أجل استعادة منصبه
عبد القادر، أحمد مختار	جزائري	1857 - 1918	مكتب الاستخبارات	حفيد عبد القادر الجزائري
العتابي، السيد محمد	مغربي	؟؟؟	مستشار في ألمانيا عام 1916 للشؤون المغربية	نشر مقالات حول الاستعمار الفرنسي في المغرب - تخوف من نوايا ألمانيا تجاه المغرب

⁷⁹ المرجع: Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896 - 1945. Eine Bibliographie, Berlin 2000. و أندوه/هاينه، الوطنيون العرب. تنسيق المعلومات وجدولتها من عمل المؤلف.

عزام، عبد الرحمن	مصري	1893 - 1976	عمل مع المخابرات الألمانية خلال عام 1918	كتب عن نضال الليبيين والحركات الصوفية هناك
العناني، علي أحمد	مصري	1886/1881 - 1940	عمل مع مكتب الاستخبارات	عضو في الحزب الوطني
فريد، محمد	مصري	1868 - 1919	تعاون مع مكتب الاستخبارات	رئيس الحزب الوطني بعد مصطفى كامل
فهيم، محمد	مصري	1880 - 1963	تعاون مع الألمان في سبيل استقلال مصر	نشر العديد من المؤلفات والدراسات حول القضية المصرية

6- مواقف الرأي العام العربي من الدعاية الألمانية

سادت بين مسلمي الولايات العربية أجواء مؤيدة للدولة العثمانية وحليفها ألمانيا. وبالنسبة إلى سورية، لم تكن التناقضات العربية – العثمانية التي ظهرت إلى الوجود في فترة ما قبل الحرب لتثير، على الأقل خلال مراحل الحرب الأولى، مواقف عدائية ضد ألمانيا. فكان الانطباع العام في بلاد الشام بأن تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانية ليس موجهاً ضد المسلمين، بل ضد بريطانيا وفرنسا، حتى ولو أن قوات ألمانية كانت تحارب جنباً إلى جنب مع العثمانيين ضد الحركة العربية. وكان كثيرون مقتنعين بأن ألمانيا تعمل من أجل استقلال البلاد الإسلامية متأثرين بذلك بالدعاية الألمانية النشطة.⁸⁰

وبالنسبة إلى مواقف المسيحيين السوريين، أكد شكيب أرسلان على تعاطف هؤلاء مع دول الوفاق الودي عموماً ومع فرنسا خصوصاً، وتحدث عن مخاوفهم من إلغاء الدولة العثمانية امتيازات جبل لبنان.⁸¹ وذكر يوسف حكيم أن أهالي جبل لبنان كانوا متلهفين لنزول قوات الحلفاء إلى البلاد.⁸² ونقلت صحيفة "الماتان" الباريسية تصريحاً للطيريرك الياس الحويك حول استعداد خمسة آلاف مسلح لبناني لمناصرة القوات الفرنسية حالما تقوم بالإبرار على الساحل اللبناني. ونعتقد أن في الخبر تحريفاً دعائياً أو مبالغاً. كما تقدم العديد من المسيحيين اللبنانيين في المهجر للتطوع في الجيوش الفرنسية.⁸³

وفي بيروت، وقبل دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، انقسمت صحافتها بين فئة مؤيدة لسياسة الحكومة العثمانية ولانتصارات ألمانيا، وأخرى أعلنت عن ولائها لفرنسا وبريطانيا. كما وقفت فئة ثالثة من الصحافة المحلية على الحياد بين الفريقين. وفي جبل لبنان، وساحل المتن وزحلة، عملت الصحافة هناك على تمجيد فرنسا كصديقة للبنان داعية لها ولجيوشها بالنصر. وأدى هذا الانقسام إلى حدوث "حرب صحفية" بين جريدة "زحلة الفتاة" الموالية لفرنسا لصاحبها شكري بخاش وإبراهيم الراعي، وصحيفة "الرأي العام" الموالية للألمان لصاحبها طه المدور.⁸⁴

⁸⁰ عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في "لبنان" 1831 - 1918، في: *أوراق جامعية* (بيروت)، 2(1993)، ص 231.

⁸¹ PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, Bd. 12, Wagenhein an Bethmann Hollweg, No. 250., A 28594, Therapia Oct. 24th 1914. 1 Suppl..

⁸² - 160. يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط4، 1991، ص 159
⁸³ 154، 156. وفي أيلول 1914، أي قيب دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الوسط - الحكيم، بيروت ولبنان، ص 153
 بشهرين، بعث شكري غانم رئيس اللجنة اللبنانية في باريس، إلى وزير الخارجية الفرنسية يطلب إليه إبقاء جورج بيكو، قنصلها العام، في بيروت حتى ولو دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا. وبرر غانم ذلك، بأن وجود بيكو المعنوي سوف يساعد اللبنانيين على الدفاع عن جبل لبنان في وجه اجتياح عثماني. ورأى أنه إذا أمكن تسليح ما بين 10 آلاف و15 ألف لبناني وتزويدهم بالذخائر Tauber, pp. 13f. عن طريق مرفأ بيروت، فسوف يكون بالإمكان طرد العثمانيين. راجع في هذا الخصوص:
⁸⁴ الحكيم، بيروت ولبنان، ص 138 - 140.

وبسبب الكراهية لدول الاستعمار البريطاني والفرنسي والروسي، لم يستطع العرب والمسلمون إدراك حقيقة الإمبريالية الألمانية في الدولة العثمانية وأهدافها. فمنذ خطابه الشهير في دمشق عام 1898 حول صداقته للمسلمين، ورسالته الشهيرة إلى قيصر روسيا نيقولا في مناسبة الزيارة تلك حول إمكانية إشهار إسلامه، فيما لو لم يكن على الدين المسيحي،⁸⁵ أضحى إمبراطور ألمانيا في نظر المسلمين هو "الحاج غليوم"، الذي يدعو له المصلون في مساجد دمشق،⁸⁶ وابن السلطان عبد الحميد الثاني الذي أرسله والده سراً إلى برلين للدراسة،⁸⁷ والمنحدر من إحدى شقيقات الرسول والمتظاهر بالمسيحية كي تبقى قوته وسلطته على رعاياه، مع رغبته وتأكيديه على أسلمة شعبه في الوقت المناسب.⁸⁸ لقد وصل الأمر بالبعض إلى اعتبار وليم الثاني السيد الذي "... وهبه الله للإسلام (والذي) لا يتبع القانون والأعراف المسيحية المقدسة. فهو الذي ينتقم لأطفال أمته ويقاتل المرتدين والكفرة. ولأنه موثوق الكلام، جعله الله صديقاً للمسلمين. إنه محارب شجاع وبطل، فإذا ما تمعنت في سلوكه تجاه المسلمين، تقول بما لا يحتمل الشك: إنه في عداد النفوس النبيلة التي تخلت عن الأصنام والصليب واتبعت الشريعة التي أنزلها سيد الناس أجمعين على النبي محمد. وعليه، فقد وهبه الله محبتنا ورضانا. فشعوب العالم ترتعد أمام سطوته لاسيما وأنه في تشاور تام مع أمير القسطنطينية... هذا الحاكم هو سلطان الألمان"⁸⁹.

وفي السياق نفسه، استرجعت صحيفة "أببيل" البيروتية في 21 كانون الأول 1914 بمناسبة إهداء العاهل الألماني ثريا إلى ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق عشية التحضيرات الألمانية - العثمانية للحملة على مصر، زيارة الإمبراطور إلى ضريح السلطان صلاح الدين عام 1898. فتساءلت عن سبب قدوم الإمبراطور إلى دمشق وتمجيده للسلطان صلاح الدين، و".... هل إنه (وليم الثاني) افتتن بعلومه العسكرية وفنونه الحربية (أي صلاح الدين) ... أو إن جلالته وقف على أساس الدين الإسلامي المبين وأيقن إنه هو المنهج القويم والصراف المستقيم..."⁹⁰

وفي مصر، أدى الزحف الألماني على بلجيكا وهزائم بريطانيا، إلى "موجة من الشعور العدائي تجاه الإنجليز والموالي للألمان". واعتبرت صحيفة "الشعب"، لسان حال "الحزب الوطني"، أن انتصار ألمانيا والدولة العثمانية في الحرب معناه الخلاص من البريطانيين وسلطتهم العسكرية وأحكامهم العرفية.⁹¹ وفي 5 تشرين الثاني 1914، ذكرت المصادر الألمانية أن المصلين في أحد المساجد المصرية ذكروا بالخير "رحلة الحج" التي قام بها الإمبراطور الألماني إلى فلسطين في العام 1898، ودعوا الله لأن ينصر "الحاج محمد وليم الثاني".⁹² وفي صيف 1915، راجت شائعات في مصر عن قرب انتصار ألمانيا ودخول حملة عثمانية ثانية إلى

⁸⁵ جاء في تلك الرسالة ما يلي: "كان شعوري الشخصي عند مغادرتي المدينة المقدسة (القدس) مليئاً بالخجل تجاه المسلمين. فلو كنت أعود إلى بلادي بخيبة كبيرة واقتناع راسخ بأن قبر المسيح المقدس ببس... قدمت إلى هنا دون دين، لكنني تحولت بالتأكيد إلى الإسلام في مأمن تحت إشراف أية من الكنائس هناك. هذه الكنائس، بمظهرها وزخارفها، لا يمكن إلا أن تقارن سلباً ببساطة ومهابة وعظمة مسجد عمر"، نقلاً عن: سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 246.

⁸⁶ PAAAWK 11g, R 21124, vol. 2, E. Schäffer to Mathieu, A 22364, Saarbrücken, Sept. 1914.

⁸⁷ Müller, Herbert Landolin, Islam, gihad ("Heiliger Krieg") und Deutsches Reich. Ein Nachspiel zur wilhelminischen Weltpolitik im Maghreb 1914 -1918, Frankfurt a.M. ect. 1991, p. 166.

F.J. Dupre The Holy Was that Failed, in: *Moslem World* 8(1918), pp. 173-

⁸⁸ 174.

⁸⁹ Müller, p. 166.

⁹⁰ سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 267-268.

⁹¹ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص 296.

⁹² Rathmann, p. 83.

مصر على رأسها الخديوي عباس حلمي لطرده البريطانيين من البلاد، حتى أن البعض روج وصول تلك الحملة إلى الدلتا. وبلغ الأمر حداً أزعج سلطات الاحتلال، عندما تجرأت عناصر مصرية على المجاهرة علناً بعدائها للبريطانيين والدعاء لانتصار ألمانيا. وأصبحت هذه المسألة حديث الناس في المقاهي والنوادي ووسائل النقل، حتى تجرأ البعض على حمل خارطات تحدد جبهات الحرب التي يحقق فيها الألمان انتصاراتهم.

وعلى ما يبدو، كان عملاء ألمان هم وراء الشائعات حول وصول الحملة العثمانية إلى منطقة الدلتا، وإن الخديوي عباس حلمي اتفق مع الألمان على استقلال مصر وسافر من أجل ذلك إلى فيينا.⁹³ ولا يعود التعاطف المصري مع ألمانيا وتمني انتصارها على بريطانيا إلى ودّ للدولة الأولى، وإنما لأنها كانت عدوة دولة الاحتلال بريطانيا. ومع ذلك، لم يصل عطف المصريين على ألمانيا إلى مستوى الثورة، وذلك بسبب افتقار الشارع المصري إلى القيادة، وخصوصاً بعد تنكيز بريطانيا بالحزب الوطني وتشتيت أعضائه خارج البلاد.⁹⁴ وفي فلسطين، ما رصد المرابي خليل السكاكيني تأثير الدعاية الألمانية في بلده. فنقل في كتابه أهزوجة ردها الفلسطينيون: "غليوم يا خالنا، بسيفك نأخذ تارنا"، أي أن دولة مسيحية تحارب عن المسلمين وتثار لهم. وتحدث السكاكيني عن اختراع العثمانيين والألمان ما يسمى بـ "راية النبي محمد" وخروج سكان القدس والقرى المجاورة لاستقبالها وتقبيلها والتبرك بها، وسط صيحات التكبير. لكن السكاكيني لاحظ أن الراية جديدة وصنعت من عهد قريب.⁹⁵

وفي للعراق، تعاطف سكانه خلال مراحل الحرب الأولى من العثمانيين وحلفائهم الألمان. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى كراهيتهم للبريطانيين، وإلى الانتصارات العسكرية التي حققتها دول الوسط في مراحل الحرب الأولى. وقد حاولت ألمانيا توظيف مشاعر العراقيين هذه عبر دفع المرجعيات الشيعية في كربلاء النجف لإصدار فتوى تؤيد الجهاد الإسلامي ضد بريطانيا وروسيا، بهدف جعل فارس تنضم إلى المحور في الحرب، وفي الوقت نفسه تحريض المسلمين في الهند على الثورة ضد بريطانيا.⁹⁶

وفي هذا السياق، زارت بعثة ألمانية برئاسة فريدريش كلاين (Kleinexpedition) كربلاء، وأخرى النجف على رأسها عالم الآثار الدكتور برويسر (Preusser) واتصلنا بالمرجعيات الشعبية هناك، وذلك في نهاية العام 1914 ومطلع كانون الثاني 1915.⁹⁷ وبناءً عليه، أصدر علماء الشيعة⁹⁸ فتاوى تدعو للجهاد ضد البريطانيين الذين كانوا بدأوا غزوم للبلاد في تشرين

⁹³ على سبيل المثال: قيام طائرة بريطانية بقصف بعض أحياء القاهرة وترويج الشائعات بأن ألمانيا هي المسؤولة عن ذلك. أنظر: لطيفة سالم، 305-306.

⁹⁴ لطيفة سالم، ص 297-308.

⁹⁵ أسامة العيسة، "كيف أصبح إمبراطور ألمانيا خالاً للمسلمين؟"، موقع: إيلاف، 30 كانون الثاني 2007

<http://www.elaph.com/ElaphWeb/ElaphLiterature/2007/1/207741.htm>

⁹⁶ Werner Ende, Iraq in World War I: The Turks, the Germans and the Shi'ite Mujtahids' Call for Jihad, in: Rudolph Peters ed. *Proceedings of the Ninth Congress of the Union Europeenne des Arabisants et Islamisants*, Amsterdam, 1st to 7th September 1978, Leiden 1981, pp. 57-58.

⁹⁷ Gehrke, 1.1, p. 56.

⁹⁸ وهؤلاء هم: في (النجف) السيد محمد سعيد الحبوبى والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد عبد الرزاق الحلو والشيخ جواد صاحب الجواهرى. وتبعهم بعد قليل شيخ الشريعة الأصفهاني في إعلان الجهاد ضد البريطانيين. لكنه ما لبث أن تفاهم مع البريطانيين بعد ذلك. وفي كربلاء، أصدر المجتهد علي العراقيين فتوى الجهاد، وأرسل منها نسخة إلى شاه فارس. أنظر: وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط3، بيروت 1986، ص 125. كما دعا علي العراقيين الشاه للانضمام إلى دول الوسط. لكن كل هذه الجهود الألمانية باءت بالفشل، ولم تؤدي إلى انضمام فارس إلى دول الوسط. كما نظرت السلطنة العثمانية بارتياح إلى التحركات الألمانية في العراق، واعترتها تدخلاً في شؤونها الداخلية. Gehrke, 1.1, pp. 56-57.

الثاني 1914. وأعلن المجتهد الأكبر في كربلاء علي خانقين⁹⁹ عن استعداده لتزويد الألمان برسالة موجهة إلى شاه إيران يحثه فيها على التخلي عن حياده في الحرب والانضمام إلى دول المحور.¹⁰⁰ كما أصدر السيد هبة الدين الشهرستاني، وهو أحد القياديين الشيعة، "فتوى خاصة" ركزت على الصداقة بين المسلمين والألمان استفادت منها الدعاية الألمانية في مناطق جنوب العراق وإيران. ولفت الشهرستاني في فتواه إلى نوايا ألمانيا الحسنة تجاه الإسلام من خلال مسائل ثلاث: زيارة إمبراطورها إلى ضريحي السلطان صلاح الدين ومحي الدين بن العربي في العام 1898، وإطلاق ألمانيا سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا يحاربون في جيوش الحلفاء، وأخيراً وقوف ألمانيا إلى جانب الدولة العثمانية في الحروب البلقانية في العامين 1913/1912.¹⁰¹ وفي الوقت نفسه، نشر المجتهد مهدي الخالصي رسالة عنوانها "الحسام البتار في جهاد الكفار" دعا فيها إلى مقاومة البريطانيين،¹⁰² فيما دعا الشاعر العراقي معروف الرصافي في أشعاره العرب إلى موازنة الدولة العثمانية ضد أعدائها.¹⁰³

وعلى الصعيد العملي، وجدت هذه الدعوات صدى لها في أوساط العراقيين. فانضمت عشائر الفرات الأوسط إلى العثمانيين في الدفاع عن العراق ضد الغزو البريطاني، وهجر الموظفون العراقيون دوائهم وانسحبوا مع العثمانيين المتقهقرين، فيما حافظ الضباط العرب على ولائهم للسلطات العسكرية العثمانية.¹⁰⁴ ومع ذلك، لم يستمر هذا الوضع طويلاً بسبب التباعد بين القوميتين العربية والتركية، وما لحق بالعثمانيين من هزائم عسكرية على يد البريطانيين وانتشار المجاعة والأوبئة في البلاد، فضلاً عن صدى سياسة البطش التي اتبعتها جمال باشا في سورية في العراق وثورة الحجاز - كل هذه الأمور قضت على تضامن العراقيين مع الدولة العثمانية، فثاروا على الدولة العثمانية.¹⁰⁵ وفي الوقت نفسه، بدأت اتصالات مع الإنكليز بهدف الانضمام إلى الحركة الحجازية.¹⁰⁶

بالإضافة إلى ذلك، اتخذ بعض شيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين مواقف مؤيدة لألمانيا وللسلطنة العثمانية ومعارضة حلفاء بريطانيا من العرب والمسلمين. ففي جريدة "الرأي العام" لسنة 1915، والتي كانت تمولها الدعاية الألمانية، كتب الشيخ زاده أسعد صاحب، شيخ الطريقة النقشبندية في دمشق، مقالاً بعنوان "بيان هام إلى العالم الإسلامي" امتدح فيه السلطان لإعلانه الجهاد من أجل الدفاع عن الدين والوطن ضد بريطانيا وفرنسا عدوتها الإسلام، وشد روسيا التي تسيء معاملة المسلمين عندها. واعتبر أن قتل الكفرة الذين يتحكمون في العالم الإسلامي هو واجب مقدس على كل مسلم، لأنه من غير المسموح به شرعاً أن يُحكم المسلمون من قبل غير المسلمين. كما طالب البيان المسلمين بمقاطعة "دول الوفاق الثلاثي" تجارياً وعدم الامتنال لأوامرهم أو دفع الضرائب. وختم بالقول، إن ألمانيا والنمسا/هنغاريا "هم الأصدقاء الحقيقيون للمسلمين".¹⁰⁷ واعتبر الشيخ أسعد أن دعم هاتين الدولتين هو واجب على كل مسلم.

⁹⁹ يعتقد أنه أن علي خانقين (=علي المازندراني) الذي سلم الألمان فتوى بإعلان الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها، لم يكن المجتهد الأكبر لكربلاء (محمد حسين الحريري المازندراني)، بل شقيقه. وكان المجتهد الأكبر محمد حسين قد سبق وأصدر في كانون الأول 1914 مع ثلاثة علماء شيعة آخرين في النجف والكاظمية وسامراء فتوى لإعلان الجهاد ضد بريطانيا، أي قبل وصول بعثة كلابين. ويرى أنه أن المرجعيات الشيعية خشيت من ارتياب العثمانيين من جراء الاتصالات بينهم وبين الألمان، ووجدوا أنه من الحكمة إبعاد المجتهد الأكبر عن هذا الموضوع، وتقرر اختيار شقيقه المجتهد علي العراقيين (علي المازندراني) ليقوم على الفتوى. أنظر:

Ende, Iraq in World War I, p. 67 –68.

¹⁰⁰ Ende, Iraq in the World War I, p. 58.

¹⁰¹ Ende, Iraq in World War I, pp. 69 – 70.

¹⁰² عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920، بغداد 1963، ص 109 –110.

¹⁰³ Sharabi, Arab Intellectuals, No. pp. 122 –123.

¹⁰⁴ نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية، ص 122 -126.

¹⁰⁵ Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I, London 1993, p. 8.

¹⁰⁶ وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط3، بيروت

1986، ص 125 – 155.

¹⁰⁷ Jacob M. Landau, The Politics of Pan-Islam. Ideology and Organisation, Oxford 1990.pp.

ونظراً لأهمية الكتيب بالنسبة للدعاية الألمانية، أمر متفوخ بطبع ألف نسخة منه وتوزيعها في المناطق الناطقة باللغة العربية.¹⁰⁸

وفي مقال للشيخ المذكور في مجلة "الجهاد" (العدد 51) نُشر أيضاً في صحيفة "الرأي العام"، اعتبر أسعد صاحب "إن تحالف الخلافة مع الدولتين ألمانيا والنمسا يهدف إلى حماية القرآن وعرش الخلافة"¹⁰⁹. كما كان لعلماء الدين في الأزهر موقف عنيف من تحالف القوميين العرب مع البريطانيين. وأصدروا فتوى بعد إعلان الشريف حسين ثورته على العثمانيين تدين "الخونة والمرتدين الذين يؤيدون صنيعة الإنكليز الملك حسين به علي". واعتبرت الفتوى الحركة الحجازية مؤامرة بريطانية لكسر الوحدة الإسلامية.¹¹⁰

7- استنتاج

لقد فشلت الدعاية الألمانية في تحقيق أهدافها. فإعلان جهاد عربي داعم لبريطانيا تسبب في كارثة حقيقية لمشروع ألمانيا في الجهاد "العثماني". فلم يحرك الجهاد الأخير ساكناً عند المسلمين في العالم وراء فكرته الدينية - السياسية، وظل دون صدى، على حد تعبير مراقب معاصر.¹¹¹ صحيح، أن "الجهاد العثماني" تسبب في قلق لدى "دول الوفاق الثلاثي" حول مصير مستعمراتها، لكنه بقي دون تأثير عملي في مجريات الحرب. إن تراجع هيبة السلطان العثماني الروحية، ودعوة الجهاد التي أطلقها شيخ الإسلام معتمدة على تحالف مع قوى مسيحية (ألمانيا والنمسا/هنغاريا)، نزع عن تلك الدعوة الصفة الشرعية الضرورية لنجاح مشروع التحالف¹¹²، وشكل سلاحاً في أيدي دول "الوفاق اثنائي" لمهاجمة الدولة العثمانية واتهامها بأنها متحالفة مع دولة مسيحية.¹¹³

لقد ثبت أن مصر لم تتجاوب مع دعوات التحريض على الثورة، في حين أعلن العرب في سورية والعراق والحجاز جهادهم الخاص وثاروا على السلطنة لمصلحة بريطانيا. ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى ثلاثة أسباب، يتعلق الأول بالسياسة العثمانية نفسها تجاه ولاياتها العربية، وفي مقدمها سياسية الاتحاديين في تقديم القومية الطورانية على حساب الجامعة الإسلامية وتجاهلهم للشخصية الوطنية العربية ورجبتهم في استعادة الدولة لسلطتها المباشرة على ولاياتها العربية. أما السبب الثاني فيتعلق بشبكة التحالفات التي أقامتها بريطانيا مع الزعامات العربية. أخيراً (السبب الثالث)، أن ألمانيا لم تأخذ في عين الاعتبار مصالح العرب القومية ولم تحاول حتى أن تستغلها، كما فعلت بريطانيا، بل ظلت طوال الحرب تراعي مصالح حليفها الدولة العثمانية التي كانت تسعى لإعادة إحكام سيطرتها على الوطن العربي بعد الحرب.

. Dupre pp. 173-175. 351 -357.; 113-114.

¹⁰⁸ PAAA/ Deutschland 126g, R 1514, Akten betreffend Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, A 34265/15, Mittwoch to ??, Berlin Nov. 22th 1915.

¹⁰⁹ PAAA/Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915.

¹¹⁰ نقلاً عن: نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية، حاشية 42، ص 148-149.

¹¹¹ Paul Schmitz, All-Islam! Weltmacht von morgen, Leipzig 1937, p. 62.

¹¹² كوثراني، الأبعاد الجيوسياسية لتقسيم العالم الإسلامي، ص 98-99.

¹¹³ PAAA/Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915.

وبالنسبة إلى مصر، رفض الوطنيون المصريون خلال الحرب استبدال بهيمنة عثمانية أخرى بريطانية. وكان "الحزب الوطني" على استعداد للقبول بتبعية سورية للدولة العثمانية، إلا أنه لم يوافق على أن تستعيد حكومة استانبول سلطتها المباشرة على مصر بعد الحرب. وفيما يتعلق بسورية، أدت ممارسات جمال باشا ضد القوميين العرب هناك إلى قطيعة بين السكان والعثمانيين. ولم تنفع استغاثة شكيب أرسلان بأنور باشا ولا صداقته معه في إنقاذ القوميين العرب من مشائخ القائد العثماني.¹¹⁴ وكانت السياسة العثمانية هذه إحدى العوامل التي جعلت العراقيين ينضمون بدورهم إلى الحركة الحجازية أو يثوروا ضد الهيمنة العثمانية.

ومن جهة أخرى، تمكنت بريطانيا من أن تلعب على التناقضات العربية - العثمانية (القومية التركية والقومية العربية) وبالتالي احتواء كل مخططات ألمانيا في شقها العربي وتطويق التحالف الألماني - العثماني عبر سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات مع إمارات الخليج العربي صبت في استراتيجيتها القاضية بتكوين جبهة عربية واسعة ضد "دول الوسط"، وخصوصاً ضد الدولة العثمانية: الكويت في رأس الخليج (الشيخ مبارك)، والشريف حسين في الحجاز على الجانب الغربي للجزيرة العربية، وابن سعود في شرقها ووسطها، هذا بالإضافة إلى مركزها المهيمن على ساحل الخليج العربي وفي اليمن الجنوبي. وبذلك، ضمنت بريطانيا حماية ظهرها من قبل السعوديين أثناء حملتها على العراق، وجعلت الهاشميين وحلفاؤهم من الحركة العربية ينخرطون في حملتها على سورية.¹¹⁵

وفيما تمكنت بريطانيا بدهائها من أن تجمع النخب البدوية والمدينية العربية وراءها، وأن تتعامل بذكاء من طموحاتهم الشخصية والقومية، لم تركز ألمانيا في دعايتها على حمل الدولة العثمانية على الاعتراف بحقوق العرب القومية، أو حتى إصدار التصريحات والوعود في ذلك الشأن. فانصبت دعايتها في العالمين العربي والإسلامي على مضامين الجامعة الإسلامية، وعلى ضرورة إطاعة السلطان العثماني بصفته خليفة وبالتالي بقاء العرب تحت مظلته. وفي المقابل، لم تحرك ألمانيا ساكناً تجاه سياسة العثمانيين التعسفية في سورية أو في العراق، ولم تحاول حتى أن توجه لهم أي نقد حازم. وعن طريق قنصلهم العام في بيروت، تمكن العثمانيون من الوصول إلى ملفات القنصلية الفرنسية التي احتوت على أسماء الناشطين في الحركة العربية ضد السلطات العثمانية.¹¹⁶

وعلى الجبهة المصرية، لم تتمكن ألمانيا من الجمع بين العثمانيين والوطنيين المصريين والخديوي عباس حلمي في معسكر واحد على الدوام. وقد اشتكى الألمان أكثر من مرة من أن الوطنيين المصريين في المنفى قد انشغلوا بخلافاتهم ضد بعضهم البعض أكثر من تكوين كتلة موحدة ضد بريطانيا. وفي الحجاز، باءت بالفشل محاولات ألمانيا لاستقطاب الشريف حسين، من خلال مفاوضات أوبنهايم - فيصل في مطلع أيار 1915¹¹⁷، وحث الدولة العثمانية على تعيينه في منصب شيخ الإسلام. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى مراعاة الألمان لحساسية

¹¹⁴ Tauber, p. 36.

¹¹⁵ عبد الرؤوف سنو، اتفاقات بريطانيا ومعاهداتها مع إمارات الخليج (1798-1916): فصول من سياسة الهيمنة والتفتيت، القسم الثالث، في: تاريخ العرب والعالم (بيروت)، 17 (1998)، ص 61 - 64.

¹¹⁶ في الواقع، عرف العثمانيون بمكان الملفات عن طريق فيليب زلزل، ترجمان القنصلية الفرنسية، عندما أبلغ هذا الأخير إلى قنصل ألمانيا العام عن استعداده للبوخ بمكان الوثائق شرط أن يضمن العثمانيون له حياته. وقد قام القنصل الألماني بإبلاغ العثمانيين بما لديه

من معلومات. أنظر: Tauber, pp. 39-40.

¹¹⁷ أجرى أوبنهايم هذه المفاوضات مع الأمير فيصل بن حسين في الأستانة من أجل استقطاب والده ووقف الجفاء بين الأخير وبين

الحكومة العثمانية. PAAA/Der Weltkrieg/R21132, vol. 11, Oppenheim to Auswärtiges Amt, No. 1055, A. 15281, Pera 5. May, 1915.

الحجيج في مكة بنفسه أو تحت إشراف والي جدة وهيب بك. PAAA/WK Nr. 11g, R 21124, vol. 2, Ausw. Amt. Abschrift, A 26481, Oct. 13th, 1914.

احتجوا عليه. Mc Kale, pp. 26-27.

العثمانيين تجاه هذه المسألة من جهة، وإلى نجاح بريطانيا في إفساد مشروع التحالف بين ألمانيا والشريف حسين بفضل لورانس من جهة أخرى.¹¹⁸

أما بالنسبة إلى العراق، فلم تستطع البعثتان الألمانيتان تحقيق أهدافهما الاستراتيجية، وهي جرّ إيران للانضمام إلى "دول الوسط"، وتحريض شيعة الهند على الثورة ضد بريطانيا. فصدرت الفتاوى متزامنة مع الاجتياح البريطاني لجنوب العراق، وليس انسجاماً مع مصالح ألمانيا وأهدافها من الحرب. ويعتقد أنه، أن السبب وراء صدور الفتوى عن المجتهد علي العراقي لمصلحة الألمان والتي لم تغير شيئاً من موقف المرجعيات الشيعية المعادي لبريطانيا في مطلع الحرب، أن كلاين قد دفع مبلغ 50 ألف مارك لتلك المرجعيات كتعويض أولي على الهبات التي كانت تصلها من الهند وأوقفتها بريطانيا بعيد اندلاع القتال.

ومن جهة أخرى، أثبتت المعاملة "الحسنة" التي وفرتها ألمانيا لأسرى الحرب المسلمين عندها ومن ثم تجنيدهم في جيوش الدولة العثمانية فشلها.¹¹⁹ ويذكر هاينه إنه من أصل أربعة آلاف أسير من شمال إفريقيا أعلن حوالي 800 منهم استعدادهم للانضمام مجدداً إلى جانب "دول الوسط".¹²⁰ وما أن توافرت لهؤلاء الآخرين الفرصة للفرار في ميادين القتال، حتى انضم معظمهم إلى جبهات القتال التابعة لدول الوفاق الثلاثي. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما على خرافة "الجامعة الإسلامية"، وعلى أن الاتجاهات القومية عند العرب كانت أقوى من مغريات هذا النوع من التضامن الديني. إلى ذلك، تناقضت ادعاءات ألمانيا بأنها نصيرة الإسلام مع سياستها الاستعمارية، حيث كانت تحكم في مستعمراتها نحو أكثر من 2 مليون إلى 2.5 مليون من المسلمين.¹²¹

لقد اكتفت ألمانيا خلال الحرب باستقطاب الشخصيات الإسلامية والعربية عندها واستخدامهم في حملاتها الدعائية، جاعلة منهم مجرد مصادر للمعلومات أو أدوات للدعاية وليس حلفاء. فمعظم مقالاتهم وكتيباتهم التي نشرت في ألمانيا، كانت تحرر من جديد وتخضع لرقابة "مكتب استخبارات الشرق" ووزارة الخارجية الألمانية. كما أن تحركات هؤلاء داخل ألمانيا وخارجها، كان يحدث في معظم الأحيان بتخطيط وإشراف من وزارة الخارجية ومكتب الاستخبارات. وبخسارة ألمانيا والدولة العثمانية للحرب، أضحي الوطنيون والإسلاميون الذين تعاملوا معها عرضة للهجوم وتوجيه التهم الشنيعة لهم من قبل أتباع الحركة العربية في المشرق.¹²²

¹¹⁸ كان يتنازع وزارة الخارجية الألمانية اتجاهان، الأول مثله أوبنهايم، ورأى وجوب عدم التقرب إلى الشريف خشية إثارة العثمانيين. ونصح أوبنهايم المسؤولين الألمان بالتخلي عن هذه الفكرة والتركيز دعم مركز السلطان كخليفة وتقوية مركزه في العالم الإسلامي وبالتالي في المشرق العربي. أما الاتجاه الثاني، فعبّرت عنه البعثة العسكرية الألمانية في الأستانة وفاغنهايم، والسفير الألماني هناك. فشدد على ضرورة عدم إهمال الشريف حسين. وبعد فشل الحملة العثمانية الأولى على مصر، ساد في وزارة الخارجية الألمانية تيار أوبنهايم حول هذه المسألة. حول هذا الموضوع، راجع وجيه عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث، مرجع سبق ذكره ص 105 – 112.

¹¹⁹ أنه/هاينه، ص 212.

¹²⁰ Heine, Al-Gihad, p. 199.

¹²¹ Victor Berard, Le Sultan, L'Islam et les Puissances, Paris 1907, p. 37.

¹²² أنه/هاينه، ص 214.

